

اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة (تحليل نتائج الدراسة الميدانية) (*)

يوسف محمد جمعة الصواني (**)

أستاذ السياسة والعلاقات الدولية، جامعة طرابلس - ليبيا.

ظلت الوحدة والهوية العربيتان على مدار أكثر من قرن ونصف القرن أهم القضايا الأساسية التي تشكل الخطاب العربي في مرحلة شهدت حراكاً سياسياً وشعبياً وفكرياً؛ فكانت فكرة الوحدة على الدوام جزءاً من هذا الحراك وهدفاً له في كثير من المراحل. وبينما تمكنت قوميات وأمم أخرى في عالمنا المعاصر من تحقيق الهدف المتعلق بإقامة «دولة - أمة»، واجه الوطن العربي ظروفاً وعاش أوضاعاً تاريخية جعلت تحقق ذلك الهدف يبدو بعيداً المنال. فرغم تحقق هدف التحرر من السيطرة الأجنبية فإن ما نجم عن ذلك من وقائع جعل السياسة العربية عقب استقلال الأقطار العربية، رغم بعض الاستثناءات، لا يدعم تلك الرؤية التوحيدية المنسجمة مع مقتضيات الهوية بل أصبحت الشاهد الحي على مناقضتها. لم يكن ذلك فقط مصدر إحباط للقوميين العرب؛ بل إن الاتجاهات الإقليمية والانعزالية هي التي سادت دنيا العرب مستندة إلى الدعوة إلى إعطاء الدولة القطرية الناشئة مجالاً للترسخ والتكوّن حتى يمكنها الدخول في ترتيبات تكاملية مع شقيقاتها، بينما كان ما تقوم به عملياً يعطي أولوية لها ويعمل على ترسيخ هويتها القطرية وليس التكامل العربي.

هكذا عاش العرب المعاصرون تناقضاً ظاهراً بين الآمال والطموحات الجامعة والواقع القطري التجزيئي الممانع لكل دعوات التكامل والتوحيد؛ بل والمناقض لشروط الحياة في النظام الدولي المعاصر وامتلاك عناصر القوة في بيئته الشديدة التنافس والصراع. لقد شكلت الحالة العربية بكل ملامستها ومكوناتها وتناقضاتها مجالاً خصباً للدراسة والتحليل الذي سعى بمقاربات مختلفة لتفسير هذا التناقض الذي يمثل حالة فصام غريبة. لم يتجاوز كثير من تلك الدراسات والتحليلات تناقضات الواقع السياسي بينما تمسكت دراسات وتحليلات عروبية بالهوية والتاريخ والمشتركات دونما تصدّد حقيقي لما يمثله، لدى عامة عرب اليوم، طرفاً هذه العلاقة

(*) تمثّل هذه الدراسة خلاصة الكتاب الذي صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية، بالعنوان

نفسه (٢٥٤ ص).

youssef.sawani@gmail.com.

(**) البريد الإلكتروني:

المتناقضة. لذلك ظلت الحاجة قائمةً إلى البحث في القيم والاتجاهات التي يختزنها الشعور الجمعي لعرب اليوم تجاه هويتهم وذاتهم ونحو واقعهم السياسي وكيف يمكن أن تتشكل طموحاتهم وآمالهم أيضاً في ظل عطالة سياسية وتحديات اقتصادية واجتماعية وأمنية لا يمكن تجاهل خطورتها الماثلة للعيان.

أولاً: مركزية هدف التوحيد والتكامل العربي: نحو نموذج جديد

يُعتبر الفكر القومي العربي التكامل والوحدة العربيين ضرورة يتوجب تحقيقها إذا كان للأمة العربية أو للعرب المعاصرين المحافظة على الهوية لتحمي وجودها المادي والمعنوي.

احتل هدف توحيد العرب في دولة واحدة، أو تكاملهم الاقتصادي ثم السياسي، أهمية مركزية، وقد كان دائماً قوة دافعة للسياسة العربية المعاصرة، بغض النظر عن توجهات النظم الحاكمة العربية وموقفها منها. لذلك تشكل المسائل والقضايا المرتبطة بالتوحيد والتعاون والتكامل وشروطها وعوائقها وفوائدها، فضلاً عن مسوغاتها، القسم الأكبر من الإنتاج الفكري العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم^(١).

ويعتبر الفكر القومي العربي التكامل والوحدة العربيين ضرورة يتوجب تحقيقها إذا كان للأمة العربية أو للعرب المعاصرين المحافظة على الهوية لتحمي وجودها المادي والمعنوي. ومع المركزية التي احتلتها فكرة وهدف التكامل والتوحيد العربي، فقد ظلت غالباً ضمن عالم المُثُل والأفكار، كما ظلت رهينة الواقع السياسي الذي عبّر عن سيطرة الدولة القطرية وترسخها المتواصل وهيمنتها على المجتمع الذي بقي بمنأى عن الفكرة الوحدوية. ويذهب بلقزيز إلى أن «مجال تحقيق الوحدة هو الدولة كمجتمع سياسي بنُخبه وصانعي القرار فيه... إلخ»، وهو ما استبعد أي رابطة ينبغي أن تقوم بين المجتمع ودولة الوحدة المأمولة. ويمكن القول إن هذا الإهمال للمجتمع أو للناس الذين ينبغي أن يكونوا، وفقاً لبلقزيز^(٢)، شاغل الوحدة ظل مسيطراً على الفكر الوحدوي القومي حتى تمكن مؤخراً من إعادة النظر في مقدماته ومفاهيمه بما يعيد الاعتبار لهذا البعد.

لقد دفعت التطورات المختلفة وتناقضات السياسة العربية الفكر العربي إلى خوض عملية مراجعة وإعادة نظر، فخضعت النظرة للدولة القطرية لإعادة نظر شاملة لوظائفها ودورها المستقبلي في تحقيق أي شكل من الوحدة أو التكامل العربي. وقد قادت المساهمات التي أنتجها

(١) تحليل مضمون الفكر القومي العربي: دراسة استطلاعية، إشراف السيد يسين (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٠)، ص ٤٥ - ٦٠، ٨٩ - ٩٥، ١٣٣ - ١٤٣ و ١٧٥ - ١٨٦.

(٢) عبد الإله بلقزيز، إشكالية الوحدة العربية: خطاب الرغبة، خطاب الممكن (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٩١).

هذا الفكر، وبخاصة خلال العقود الثلاثة الأخيرة، إلى بزوغ نموذج جديد، يختلف اختلافاً كلياً عن وجهات النظر التقليدية في تقويمه للواقع العربي ولل فكرة العروبية وبخاصة هدف التوحيد. إن هناك اليوم ما يكفي من الإسهامات التي تشير إلى بزوغ نموذج جديد لعروبة جديدة تستوعب أن التكامل أو الوحدة العربية ليست معطى استاتيكيّاً، بل إنها تعيش جدلاً مع الواقع القطري والتجزئة ودينامياتها الفاعلة في التاريخ العربي المعاصر.

ومع أن التفكير الجديد لا يزال يتمسك بوجود ظاهر وصريح للأمة العربية، فإنه يؤكد استقلال الأمة عن الدولة ولم يعد يعاني الالتباس المتصل بالربط التلقائي والتواءم التلقائي بين الأمة والدولة باعتبار أنها تمثل الترجمة العملية لها من الناحية السياسية. هنا نجد تفسيراً لحقائق التناقض الذي طالما اعتبر تنفيذاً لوجود الأمة العربية، فالأمة ليست رهناً بالدولة الواحدة، فهي يمكن أن تتحد من دون أن يقتضي ذلك وجود دولة قومية واحدة جامعة. كما أن وجود الأمة لا يناقضه سعي الدول القطرية لنيل ولاء أفرادها كما يقتضي القبول بأنه لا نموذج محدد للتكامل وللوحدة التي يمكن أن تأخذ أشكالاً متعددة.

كان التناقض بين الهدف والواقع السياسي حافزاً لإجراء الدراسات والبحوث العلمية على علاقة المواطن العربي بالمثل والأهداف العروبية الجامعة لبيان مدى تلاؤم اتجاهات الرأي العام مع ما ترفعه النخب من أهداف. وبناء على ذلك فقد كان التساؤل الرئيسي الذي طرحه الاستطلاع الرائد للرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة الذي قام به مركز دراسات الوحدة العربية في ١٩٧٩ هو ذلك المتعلق بالمدى الذي ينتشر فيه الوعي بمسائل الوحدة والإيمان بها وسط الجماهير العربية والمدى الذي مثلت فيه المسائل القومية جوانب أساسية من الهموم الحياتية للمواطن العربي. لقد انطلق الاستطلاع حينها من افتراض أنه رغم ما يقال من أن الوحدة العربية مطلب شعبي فإنها مع ذلك ظلت محصورة في نطاق اهتمامات وانشغالات المثقفين والسياسيين ولم تكن هماً أو موضوع انشغال للجماهير العريضة. لذلك كان محور العمل الرائد التعرف إلى واقع مسألة الوحدة في قنوات واتجاهات الجماهير على المستويات العقلانية والوجدانية والسلوكية^(٣). واليوم وبعد مرور أكثر من ثلاثة عقود رأى المركز أن الوقت قد حان لإجراء مسح ثانٍ لغرض متابعة العمل العلمي على مسألة الوحدة وللتأكد من مدى ثبات الاتجاهات ورسوخها رغم الظروف.

ثانياً: السياق العربي العام وقت إجراء الدراسة الميدانية

مثل التكامل والوحدة العربية وعناصرها وأدوات تحقيقها ومعوّقاتها من حقبة إلى أخرى جزءاً لا يتجزأ من أي خطاب رسمي، أو غير رسمي، ومن خطاب التيارات التي تقف ضد مفهوم الهوية العربية أو التي تعتبرها مجرد مكوّن ضمن حقبة تاريخية تنتهي كغيرها لتبرر أطروحة

(٣) سعد الدين إبراهيم، اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة: دراسة ميدانية، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٣٣.

نهاية العروبة. لذلك فإن ما يجري من نقاش اليوم عقب الثورات التي شهدتها المنطقة العربية اليوم ليس طارئاً جديداً، بل هو إعادة إنتاج لمضامين حوارات عرفها الفكر والواقع العربيان منذ فجر النهضة العربية. مع ذلك فإن هناك أهمية لا ينبغي تجاهلها للأسئلة المتصلة بأسباب عدم تحقق أي شكل أو مستوى عملي من التكامل أو التوحيد العربي حتى الآن. هل هي مجرد أوهام لم تتحقق؟ أم أنها أمل لا يستقيم مع الواقع؟ أم أن واقع العرب وإحباطاتهم المتواصلة قادت إلى يأسهم من ذلك؟ أم أن الشعور بالتكامل والتوحيد أو الإيمان بأهميتهما قد تراجع بين العرب؟

لذلك قرر مركز دراسات الوحدة العربية التصدي لهذا التحدي الموضوعي والمعرفي وباستخدام المنهجية العلمية ذاتها التي ميّزت استطلاع الرائد عن اتجاهات الرأي العام العربي نحو الوحدة الذي أجراه عام ١٩٧٩ وشمل عدداً كبيراً من الأقطار العربية^(٤).

لقد رأى المركز أن الوقت قد حان لإجراء مسح أو استطلاع ثانٍ لاتجاهات الرأي العام نحو التكامل والوحدة يستند أو يحتكم للواقع، من أجل إيجاد إجابات لتلك الأسئلة أو بعض منها على الأقل حسب الإمكانيات. وقد جرى تنفيذه في عشرة أقطار عربية (الجزائر؛ المغرب؛ الأردن؛ فلسطين (غزة والضفة الغربية)؛ لبنان؛ السعودية؛ اليمن؛ السودان؛ ومصر وسورية) ما بين نهاية ٢٠٠٩ و ٢٠١٠. لقد أجري الاستطلاع الثاني الذي نقدم هنا خلاصاته الرئيسية في وقت كان فيه اليأس والإحباط من العمل العربي المشترك، ومن أداء مؤسسات النظام الرسمي العربي، قد بلغ حدوداً كبيرة بين العرب بمختلف مستوياتهم واهتماماتهم. وبعد مرور أكثر من ثلاثة عقود على إجراء ذلك الاستطلاع الرائد، حدثت تطورات وتحولات لامست بشكل مباشر أو غير مباشر مسألة الوحدة على صعيدي الفكر والواقع. فلقد حقق الفكر القومي العربي مثلاً إنجازات فكرية ومعرفية طورت مضمون مقاربه للمسألة الخاصة بالوحدة والتكامل وأشكاله. كما طرأت تطورات وتغيرات مست أدق تفاصيل الحياة اليومية للمواطن الذي جعلته العولمة أيضاً وتمثلاتها المختلفة وما نجم عنها أكثر عرضة للتأثر نفسياً وعاطفياً ووجدانياً وعقلانياً.

لعل من نافلة القول الإشارة إلى أن حال العرب الراهن لا تسر أي ناظر ولا تبعث من الأمل إلا أقله. وإذا كان واضحاً أن الأقطار العربية دون استثناء قد عجزت عن الوفاء بطموحات مواطنيها في التنمية والأمن والحرية والتحرر بمعايير العصر، فإن الواقع ملآن تناقضات مصاحبة ليس فقط لجدل الهيمنة والتحرر بل أيضاً للعجز العربي، سياسياً وفكرياً ومجتمعياً، عن إنجاز المشروع النهضوي العربي للحداثة والتطور. إن لذلك صلة وثيقة بغياب الرؤية المجتمعية الشاملة التي تجيب عن الأسئلة الخطيرة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً^(٥).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) يوسف الصواني، «مستقبل الأمة العربية في رؤيتين: تقرير التنمية الإنسانية العربية وبيان حال الأمة العربية»، ورقة قُدمت إلى: أعمال المؤتمر العلمي حول تقرير التنمية الإنسانية العربية، تحرير امحمد مالكي (الدار البيضاء: دار نشر الجديدة، ٢٠٠٧)، ص ٢٤١.

هكذا كان الحكم الذي أصدره معدّو تقرير التنمية الإنسانية العربية في ٢٠٠٩ مثيراً للقلق، حيث حفل الوضع العربي بشكل عام بالعديد من مظاهر العجز على كل المستويات. وبلغت التقرير فإن هذا الأمر «ناتج، في بعض جوانبه، من عوامل التشتت والتوتر الموجودة في المنطقة»^(٦).

وبلغة المشروع النهضوي العربي، ووفقاً لرؤيته، فإن الوطن العربي في العقود الثلاثة الأخيرة عانى مستويات متنوعة من التراجع الذي لم يسبق له مثيل. وقد شخص المشروع النهضوي مظاهر التراجع الذي بدا وكأنه جنوح نحو السقوط في تردّد سياسي واجتماعي واقتصادي وأمني^(٧). لذلك فإن ما عبر عنه الواقع السياسي العربي تجاه العلاقة بين هدف الوحدة أو التكامل وواقع السياسة القطرية عكس أخطر مستويات التراجع وعبر عن خطر المزيد

إن التاريخ المشترك، والعادات والتقاليد، والمصالح المشتركة، ومواجهة التحديات نفسها، ووحدة الإقليم الجغرافي تمثل عناصر موحدة بين الشعوب العربية.

من السقوط. قدّم المشروع النهضوي العربي تشخيصاً دقيقاً لمسارات ذلك التردّي وما يترتب على العلاقة القائمة بين القومي والقطري ومآلاتها الخطيرة على الحاضر والمستقبل. إن ذلك خطر حقيقي على الحاضر والمستقبل وهو يتعلق مباشرة بما يسميه المشروع النهضوي العربي «حالة الانكفاء الكياني للدولة القطرية العربية وتضاؤل أحجام ومستويات الصلة بين البلدان العربية. لقد وأدت الدولة القطرية العربية فكرة الوحدة العربية... في المقابل لم تكن صادقة في صناعة شراكة إقليمية تعاونية - حتى دون مستوى الوحدة»^(٨).

مع ذلك فإن دراسة اتجاهات الرأي العام نحو فكرة التكامل والتوحيد العربي كانت موضوعاً شبه مغيبٍ باستثناء العمل الرائد والتأسيسي الذي قام به مركز دراسات الوحدة وبخاصة ما نشره من دراسات هامة تناولت مسائل التوحيد والتكامل العربي على مختلف المستويات وتجاوزت الطرح الرومانسي للفكرة العروبية لتجعلها معنية بالواقع العربي بكل تجلياته وتعقيداته. ولا يمكن هنا إلا أن نذكر المشروع الكبير الذي أطلقه المركز بالتعاون مع عدد كبير من الباحثين والمختصين العرب لاستشراف المستقبل العربي. لقد كانت الأهداف الرئيسية للمشروع الرائد دراسة وتحليل الواقع العربي وقضاياها في إطار السياقات البيئية المتعددة وبيان المنهجية أو المقاربة الملائمة للاستجابة للتحديات التي لا يمكن التوصل دون تناولها إلى فهم للواقع أو إمكانية النظر إلى المستقبل بكل مكوناته ومحدداته ومآلاته. برز من بين تلك المسائل

(٦) تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٩: تحديات أمن الإنسان في البلدان العربية (نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، ٢٠٠٩)، <<http://www.arab-hdr.org/publications/contents/arabic/2009/execsummary-a.pdf>>.

(٧) المشروع النهضوي العربي: نداء المستقبل (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠).

(٨) المصدر نفسه.

المحورية مسائل الهوية والتنوع ومقومات وعوائق التكامل والتوحيد لتحل مكانتها في الفكر والوعي العربيين، إضافة إلى التنبيه إلى أهمية دراستها في الواقع المباشر والمعاش^(٩).

وقد قام المركز، ترجمةً لأهداف المشروع، بإجراء ونشر دراسات وأعمال متعددة ونظم مؤتمرات وندوات مفصلية على طريق تطوير مقاربات عربية للتحديات التي تواجه العرب، وهو ما مثل مساهمة مهمة في الحوار حول الهوية والوحدة العربية ولمواجهة ما عرفته المكتبة العربية من نقص ظاهر في الأدبيات التي تتناول

بصورة مباشرة أو غير مباشرة تعابير أو تمظهرات الوحدة العربية في المستويات الشعبية. كان من أهم تلك المبادرات عقد المركز لندوة كبيرة في ٢٠٠٩ حول الوحدة ورؤيتها المستقبلية، وهي الندوة التي كانت إيداناً بولادة نموذج فكري جديد بشأن التوحيد والتكامل العربي، وفتحت آفاقاً جديدة أمام الباحثين والدارسين العرب الذين وفر لهم المركز مجالاً رحباً للنشر والتلاقى بما يسهم بشكل متواصل في تطوير المقاربات^(١٠).

ومع ما قام به المركز من أعمال، وما نشره من دراسات وأطروحات دكتوراه حول هذه المسائل، والتي تمثل بحق مكتبة عربية متكاملة من مقاربات وتخصصات متعددة، فقد ظل الإنتاج العربي نخبواً لا يأخذ بعين الاعتبار اتجاهات الرأي نحو هذه المسألة الجوهرية والمصرية رغم استحوادها على الرأي العام والسياسة العربية أيضاً^(١١). لذا كان من الضروري القيام بالاستطلاع الثاني ليتناول الموضوع في ضوء توافر عينات ممثلة ببعض الأقطار العربية تجاه الوحدة العربية

(٩) خير الدين حسيب، المشرف ورئيس الفريق [وآخرون]، مستقبل الأمة العربية: التحديات... والخيارات: التقرير النهائي لمشروع إستشراف مستقبل الوطن العربي، مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي. التقرير النهائي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨).

(١٠) انظر: من أجل الوحدة العربية: رؤية للمستقبل: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠)، والوحدة العربية: تجاربها وتوقعاتها: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت: المركز، ١٩٨٩).

(١١) نُشر المركز أعمالاً هامة كثيرة منها: سعدون حمادي، مشروع الوحدة العربية: ما العمل؟ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦)؛ عبد الحميد براهيم، أبعاد الاندماج الاقتصادي العربي واحتمالات المستقبل، ط ٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)؛ إبراهيم سعد الدين [وآخرون]، صور المستقبل العربي، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢)؛ العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة (ندوة)، تحرير هشام شرابي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)؛ الوطن العربي ومشروعات التكامل البديلة: أعمال المؤتمر العلمي الثالث للجمعية العربية للبحوث الاقتصادية، تحرير محمد محمود الإمام (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧)؛ محمد محمود الإمام، تجارب التكامل العالمية ومغزاها للتكامل العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)؛ الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي (ندوة)، تحرير غسان سلامة [وآخرون] (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩)؛ يوسف مكي، في الوحدة والتداعي: دراسة =

بحيث تشمل المواطنين العاديين وليس النخب. وبما أن هذا النوع من الدراسات لم يتم إجراؤه من قبل، فقد تم تطوير أداة لقياس اتجاهات الرأي تتضمن الكثير من المؤشرات التي لم يتم دراستها ميدانياً من قبل.

وهذف الاستطلاع، إضافة إلى قياس اتجاهات الرأي العام نحو التكامل والتوحيد العربي، إلى التعرف إلى اتجاهات الرأي العام العربي نحو مدى الترابط والتقارب بين الشعوب العربية ومقارنتها بشعوب غير عربية مجاورة مسلمة وغير مسلمة، من أجل الوقوف على قراءة مقارنة لمدى قوة الترابط العربي عند المواطنين، مقارنة بروابط أخرى. كما ركز الاستطلاع على الكشف عن اتجاهات الرأي العام نحو إجراءات وسياسات ذات طبيعة تكاملية وذلك باقتراحها للنهوض بالواقع العربي (قطرياً وقومياً) أو بتقدير واقعها في العلاقات البينية العربية. كما خُصص قسم من الاستطلاع للتعرف إلى آراء المواطنين نحو معوقات الوحدة العربية، إضافة إلى قياس درجة التواصل بين الأقطار العربية اعتماداً على أنشطة المواطنين العرب^(١٢).

ثالثاً: نتائج ومؤشرات الاستطلاع

١ - الروابط بين الشعوب العربية وعوامل وحدتها

هدف الاستطلاع إلى قياس اتجاهات الرأي العام في الأقطار المبحوثة حول مدى وجود الروابط والعوامل المشتركة بين عرب اليوم وماهيتها. لذلك تم إعداد استمارة الاستبيان بحيث يتم الحصول على إجابات تحدد اتجاهات الرأي العام نحو هذه الروابط، وبخاصة ما يتعلق منها بمدى وجود هوية عربية لدى المستجيبين ودرجة عمقها في مقابل غيرها. وقد عكست النتائج قوة الروابط العربية القائمة وما تحظى به من أولوية على ما عداها. أظهر المستجيبون في كل الأقطار ارتباط شعوبهم وبلدانهم بالشعوب العربية الأخرى، حيث جاءت الروابط بينها في المقدمة بين الروابط الأخرى واستحوذت على نصيب الأسد من إجابات المستطلعين بنسبة ٨٢ بالمئة من الإجابات كافة في جميع الأقطار المبحوثة.

إن الرأي العام العربي منحاز إلى الشعوب العربية التي يرتبط معها بروابط لغة ودين وتراث مشترك وروابط ثقافية. بالمقابل لم يؤهل رابط الدين الإسلامي، وإلى حد ما الجوار، شعوب الأقطار المسلمة غير العربية في الحصول على نسب عالية بين إجابات المستجيبين

في أسباب تعثر مشاريع النهضة العربية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣)، ومحمد ليب شقير، الوحدة الاقتصادية العربية: تجاربها وتوقعاتها (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦).

(١٢) شمل الاستطلاع أيضاً التعرف إلى اتجاهات الرأي العام العربي نحو الديمقراطية وقد حللنا النتائج في دراستنا عنها. انظر: يوسف محمد جمعة الصواني، اتجاهات الرأي العام العربي نحو الديمقراطية: تحليل نتائج الدراسة الميدانية، وقفية جاسم القطامي للديمقراطية وحقوق الإنسان (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٤).

بوصفها شعوباً قريبة لشعوب المستطلعين. ومع أنه من المهم الإشارة إلى أن ١٤ - ١٨ بالمئة من مستجبيي لبنان والجزائر والمغرب قد أوردت شعوباً أوروبية على أساس أنها الشعوب الأقرب إلى شعوب بلدانها، فإن تلك النسبة تتضاءل في أهميتها أمام نسبة الذين يقررون أولوية الروابط العربية عموماً. كما لا يمكننا أن نتجاهل، عند تفسير ذلك، أن العلاقات التاريخية والثقافية بين شعوب هذه البلدان وكل من فرنسا وإسبانيا وقوة الروابط بينها من النواحي الاقتصادية ودور الجوالي المهاجرة تؤدي دوراً مؤثراً في تشكيل اتجاهات قطاعات من الرأي العام الذي لا يضعها في مواجهة الروابط العربية أو مناقضة لها، وإن أولى تلك الروابط أهمية.

**إن عدم رغبة الحكام العرب
في إقامة وحدة عربية،
وإن غياب الإرادة السياسية
وتضارب المصالح بين النظم
الحاكمة، عاملان معوّقان
لتحقيق الوحدة العربية.**

هذه النتائج ذات دلالة واضحة حول قوة الشعور بالهوية المشتركة بين المستجبيين، وهي مؤشرات يبدو اتصافها بالثبات عبر السنين منذ أن تم تنفيذ الاستطلاع الرائد لاتجاهات الرأي العام العربي نحو الوحدة العربية. كما جاءت نتائج العديد من الاستطلاعات التالية لتؤكد عمق هذه المشاعر والأحاسيس المشتركة التي لا يمكن إلا اعتبارها مؤشراً ميدانياً حياً على استمرار مشاعر العروبة في السيطرة على المخيال الجمعي للعرب رغم كل المحبطات. إن قوة هذه الاتجاهات العروبية الجامعة يمكن تلمسها أيضاً من خلال النتائج المباشرة أو غير

المباشرة لعدد من الاستطلاعات والمسوح، مثل دراسة مؤسسة زغبى القائمة على مسح اهتم بشكل مباشر بمسألة الهوية^(١٣)، إضافة إلى المسح الدوري لجامعة ميريلاند الأمريكية^(١٤)، ومسح المؤشر العربي لمعهد الدوحة منذ انطلاقه في ٢٠١١^(١٥)، والتي أكدت جميعها قوة حضور الروابط والمشاركات العروبية الجامعة.

يكشف استطلاع معهد الدوحة، خلال دورتيه المتتاليتين مثلاً، عن قوة هذه الاتجاهات ورسوخها لدى الرأي العام العربي، حيث إن أكثرية مواطني الوطن العربي، وبنسبة ٧٩ بالمئة من المستجبيين، ترى أن سكان الوطن العربي يمثلون أمة واحدة^(١٦).

(١٣) James J. Zogby, *What Arabs Think: Values, Beliefs and Concerns* ([New York]: Zogby International, 2002), pp. 12-13.

(١٤) انظر المسح الذي أجرته جامعة ميريلاند للرأي العام العربي في عامي ٢٠١٠ و ٢٠١١، في: 2010 Annual Arab Public Opinion Survey: Survey Conducted June-July 2010 in Egypt, Jordan, Lebanon, Morocco, Saudi Arabia (KSA) and UAE,» Anwar Sadat Chair for Peace and Development, University of Maryland with Zogby International (2010), and «2011 Annual Arab Public Opinion Survey: Survey conducted October 2011 in Egypt, Jordan, Lebanon, Morocco and UAE,» Anwar Sadat Chair for Peace and Development, University of Maryland (2011), <<http://sadat.umd.edu/new%20surveys/surveys.htm>>.

(١٥) «المؤشر العربي ٢٠١٢/٢٠١٣»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (١١ حزيران/يونيو ٢٠١٣)، <<http://www.dohainstitute.org/release/657dc82a-dfa2-4749-9e96-5af5bf20913a>>.

(١٦) المصدر نفسه.

ولعل هذه المؤشرات الدالة على رسوخ التصور الخاص بالأمة العربية تبدو أكثر دلالة عند إجراء مقارنة بنتائج المؤشر لعام ٢٠١٢-٢٠١٣، حيث يظهر من المقارنة «ارتفاع جوهري في نسبة الذين يرون أن سكان الوطن العربي يمثلون أمة واحدة ذات سمات واحدة، وإن كانت تفصل بينها حدود مصطنعة من ٣٥ بالمئة في عام ٢٠١١ إلى ٤٤ بالمئة في عام ٢٠١٢-٢٠١٣، في حين انخفضت نسبة الذين أفادوا بأن شعوب المنطقة هم أمم وشعوب مختلفة لا تربط بينها سوى روابط ضعيفة من ١٧ بالمئة في استطلاع المؤشر العربي لعام ٢٠١١ إلى ١٤ بالمئة في استطلاع المؤشر العربي لعام ٢٠١٢-٢٠١٣»^(١٧).

أ- العوامل المشتركة بين الشعوب العربية

تظهر النتائج والمؤشرات الكمية التي أمكن الحصول عليها من المسح الميداني أن الرأي العام في الوطن العربي أورد ثلاثة عوامل رئيسية بوصفها أهم العوامل المشتركة بين شعوب الأقطار العربية. فقد احتلت اللغة العربية مكانة بارزة بنسبة ٢٩ بالمئة من مجموع الإجابات، يليها الدين الإسلامي بنسبة ٢٩ بالمئة أيضاً، في حين جاءت وحدة الثقافة والعادات والتقاليد المشتركة العامل الأهم الثالث بنسبة ١٨ بالمئة. ويبين هذا بوضوح أن ٨٧ بالمئة من إجابات مواطني الأقطار المبحوثة عبّرت عن إدراكها لهذا الثالوث من العوامل المشتركة بين الشعوب العربية وأبرزته في المقدمة على ما عداه من عوامل دليلاً على قوة الروابط العروبية القائمة. وينسب أقل جاء عامل التاريخ المشترك للشعوب العربية (٤ بالمئة) ووحدة المصالح والمصير المشترك (٤ بالمئة)، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية القائمة بين الشعوب العربية (٤ بالمئة)، ووحدة الإقليم الجغرافي (٣ بالمئة).

هكذا يمكننا الاستخلاص أن الإيمان بوجود عوامل وروابط مشتركة بين الشعوب العربية لا يمثل أمراً غريباً عن تفكير المواطن العربي. بل على العكس من ذلك فلدى هذا المواطن تصور واضح عن هذه العوامل المشتركة، وهو قادر على تقديم تعريف ذي مفهوم ومحتوى لهذه العوامل. إن ذلك يبدو ظاهراً وذا دلالات لا يمكن إغفالها، حيث كانت نسبة الذين أفادوا بأنهم غير قادرين على تقديم تعريف محدودة جداً ولا تتجاوز ١ بالمئة في جميع الأقطار باستثناء مصر، إذ أفاد ما نسبته ٤ بالمئة من المستجيبين بأنهم غير قادرين على تقديم تعريف للعوامل المشتركة بين شعبهم والشعوب العربية الأخرى.

ب- العناصر الموحدة بين شعوب الأقطار العربية

إذا كانت إجابات أفراد العينة المبحوثة قد قررت، كما رأينا، أن اللغة العربية والدين الإسلامي هما أهم عاملين مشتركين بين العوامل القائمة بين الشعوب العربية، فإن نتائج أكثر قوة وتعبيراً عن الدلالات العروبية تبرز من خلال ما يمكن اعتباره شبه إجماع بين مستجيبين الأقطار المبحوثة؛ على أن هذين العاملين يمثلان أيضاً أهم عناصر الوحدة (٩٢ بالمئة و ٩١

بالمئة على التوالي). في حين توافق حوالى ثلاثة أرباع المستجيبين على أن التاريخ المشترك، والعادات والتقاليد، والمصالح المشتركة، ومواجهة التحديات نفسها، ووحدة الإقليم الجغرافي تمثل عناصر موحدة بين الشعوب العربية. لعل من المؤشرات ذات الدلالة العميقة أن الرأي العام العربي في أقطار المسح أكد وجود إجماع بين مستجيبى الأقطار المبحوثة على أولوية اللغة العربية ومركزيتها كعنصر توحيد.

وينطبق الأمر على الدين الإسلامي باستثناء مستجيبى لبنان، حيث أفاد ٧٠ بالمئة منهم أن الدين الإسلامي هو عنصر موحد بين شعوب الأقطار العربية. وما لا شك فيه أن التنوع الديني في بعض الأقطار ومنها لبنان قد انعكس في اتجاهات المستجيبين بشأن أهمية الدين كعنصر موحد بين الشعوب العربية. كما توافقت أكثرية المستجيبين في كل الأقطار المبحوثة، بنسب تراوح ما بين ثلثي المستجيبين وثلاثة أرباعهم، على أن التاريخ المشترك والعادات والتقاليد ووحدة الإقليم الجغرافي ومواجهة التحديات نفسها والمصالح المشتركة هي عناصر موحدة بين الشعوب العربية.

٢- الوحدة والتكامل في اتجاهات الرأي العام العربي

اختبر المواطن العربي في التاريخ العربي المعاصر نماذج وأشكالاً ومستويات مختلفة وعدة صيغ للتكامل والتعاون العربي ضمن مؤسسات النظام الرسمي العربي، إضافة إلى تجارب توحيد قطرية أو إقليمية ونشوء اتحادات أو تجمعات إقليمية عربية مختلفة. وبقدر ما كانت التجربة والغنى الفكري والمعرفي الذي تحقق للفكر القومي خلال العقود الأخيرة دالاً على مستوى الإدراك للإمكانات والآفاق الواعدة التي تقدمها نماذج التكامل بما في ذلك الوظيفية والاتحادية، فقد جعلت تحديات الحياة ومشكلاتها المواطن العربي أكثر وعياً بتعدد مستويات التعاون والتنسيق والتكامل أيضاً.

إن المؤشرات التي أبانتها نتائج الدراسة الميدانية تؤكد توافقاً كبيراً مع مسوحات الرأي العام العربي التي أجرتها مؤسسات مختلفة وكما ظهرت في إجابات العيّينات في جميع الأقطار التي جرى بها المسح. ما يمكن تقريره هو وجود توافق عربي على أهمية مجموعة إجراءات التكامل أو التوحيد، وقد عكست هذه المؤشرات أن الرأي العام العربي ليس خلوّاً من أي أفكار أو تصورات بشأن هدف جعل الأقطار العربية أكثر ارتباطاً مما هو قائم فعلاً. تظهر النتائج قدرة المواطن العربي على تقديم تحديد واضح لما يراه أفضل الوسائل والإجراءات التي ترتبط بأهداف التكامل والتوحيد والتعاون التي تشمل مستويات اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية.

وإذا أردنا ذكر بعض الأمثلة للإجراءات التكاملية أو التعاونية للتعرف إلى درجة تقدير الرأي العام لها فيمكن أن نذكر أن نتائج الاستطلاع قد كشفت عن وجود توافق عام على إنشاء محكمة عدل عربية لحل النزاعات بين الأقطار العربية. ولقد ظهر بوضوح كيف أن الرأي العام العربي منحاز، إلى حد بعيد، إلى تطبيق سياسات تكاملية بين الأقطار العربية. أما على صعيد الإجراءات ذات الطبيعة الاقتصادية فقد أيد ٧٠ بالمئة من المستجيبين اعتماد مبدأ حرية انتقال

العمالة بين الأقطار العربية دون قيود، وأُيد ٧٩ بالمئة إنشاء نظام عربي يتيح حرية انتقال رؤوس الأموال العربية بين الأقطار العربية. كما حظي إنشاء نظام نقدي عربي واحد يؤدي إلى وحدة العملة العربية على نسبة ٧٦ بالمئة من المستجيبين. إن من المثير أيضاً ملاحظة أن ٧٢ بالمئة من المستجيبين عبروا عن تأييدهم لإنشاء مجلس نواب عربي منتخب، مقابل معارضة ١٧ بالمئة لمثل هذا الإجراء. في حين أُيد ثلاثة أرباع المستجيبين إنشاء قوات عسكرية عربية مشتركة بالإضافة إلى الجيوش الوطنية، وعارض ذلك ١٦ بالمئة فقط.

أ - المصلحة القطرية والمصلحة العربية: تكامل أم تعارض؟

كانت الحجة تقام دائماً في معارضة هدف التوحيد العربي كونه لا يخدم المصالح القطرية. لذا كان من الضروري أن يتصدى الاستطلاع لهذه المسألة، ليتعرف إلى اتجاهات الرأي العام العربي في أقطار المسح بشأن العلاقة بين المصالح القطرية والقومية المأمولة. إن النتيجة المهمة التي حصلنا عليها بالدراسة الميدانية هي أن نسب المستجيبين الذين أفادوا بأن تطبيق هذه الإجراءات هو في مصلحة بلدانهم شبه متطابق مع نسب المؤيدين لهذه الإجراءات. فقد عبّرت أكثرية المستجيبين في كل قطر من الأقطار المبحوثة أن تطبيق هذا الإجراء سيكون في مصلحة بلدهم. إن أكثرية المستجيبين في الأقطار المبحوثة تؤيد، مثلاً، إلغاء شرط الحصول على تأشيرة الدخول باعتبارها شرطاً للسفر بين الأقطار العربية. على الرغم من التباين في اتجاهات الرأي العام نحو إلغاء شرط الحصول على تأشيرة بين جميع الأقطار العربية أو بعضها أو إبقاء الإجراءات كما هي، فإن ٦٩ بالمئة من الرأي العام العربي سوف يؤيد قرار إلغاء تأشيرة الدخول بين الأقطار العربية في حال اتخاذها، مقابل ٢١ بالمئة سوف يعارضونه، وكانت نسبة الذين لم يعبروا عن رأي ١٠ بالمئة فقط.

هنالك شبه إجماع بين مستجيبين الوطن العربي على أن الموقف الأمريكي والموقف الإسرائيلي من قيام وحدة عربية هو عامل معوق لتحقيق الوحدة العربية بدرجة كبيرة.

ولغايات التمييز بين اتجاهات الرأي العام المؤيدة لسياسة التحرير التجاري على إطلاقه، واتجاهات الرأي العام التي تؤيد سياسات تحرير التجارة البينية العربية، فلقد قام هذا الاستطلاع بمعالجة هذا الجزء عبر معرفة اتجاهات الرأي العام نحو إلغاء الضرائب والرسوم الجمركية على البضائع العربية والأوروبية والصينية واليابانية. لقد بينت المؤشرات المستخلصة من الاستطلاع أن الرأي العربي منحاز نحو إلغاء الضرائب والرسوم الجمركية على المستوردات من البضائع العربية؛ إذ عبّر ٦٩ بالمئة من المستجيبين في جميع الساحات التي أجري بها المسح عن تأييدهم لمثل هذه السياسة. وهكذا يمكننا أن نخلص وبنوثة مستندة إلى هذه النتائج أن الرأي العام العربي الذي تم استقصاؤه في الدراسة الميدانية لديه رغبة قوية في رؤية إجراءات تكاملية أو تعاونية بين الأقطار العربية. إن النتائج ذات مضامين معبرة وقوية، وهو ما يعكس

الإحساس بعمق الروابط، كما يعبر عن التوق إلى مستقبل أفضل يسمح بمعالجة أفضل للتحديات والمشكلات وبما يتجاوز أفق الدولة القطرية ليشمل الفضاء العربي بأكمله.

ب - التكامل والتوحيد العربي: النماذج والاتجاهات

كثرت التحليلات والتفسيرات السياسية والفكرية بشأن النماذج الممكنة للتكامل والتوحيد العربي وأشكاله، مثلما تعددت بشأن معوّقاته. راوحت تلك التفسيرات من القول إن الهدف غير واقعي ومنايف للموضوعية، فالعرب أمم شتى وليسوا أمة واحدة؛ إلى القول إن الدولة والهوية القطرية قد تكرست خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وإنه لا مجال لتجاوزها وإذابتها؛ مروراً بالتفسيرات التي اعتمدت نظرية المؤامرة الخارجية الإمبريالية أو الصهيونية ومخططاتها ضد الوحدة العربية. إلا أن من الملاحظ أن هذه التحليلات ارتكزت فقط على ظواهر السياسة الواقعية (Realpolitik)، ولم تولّ المواطن العربي القدر المناسب من الاهتمام الموضوعي كمادة للسياسة ووعائها الاجتماعي أيضاً للتعرف إلى ما يراه وما يعتمل في قرارة نفسه من اتجاهات.

الرأي العام العربي يختزن طاقة عالية من الاتجاهات والتصورات التي تؤكد استقرار قيم ومضامين العروبة الجامعة بمستوياتها المفاهيمية والتطبيقية المتعددة.

وسعيّاً لتجاوز هذا النقص فقد تم توجيه أسئلة لاستبيان الاتجاهات نحو الوحدة والنماذج والأشكال التي يراها الرأي العام العربي مناسبة لقيام مستويات متعددة من التكامل أو التعاون أو التوحيد العربي، وكذلك التعرف إلى تقدير الرأي العام لسلة من العوامل المقترحة كعوائق للتكامل والتوحيد، سواء أكانت قوى وديناميات محلية داخلية أم عوامل ومعوقات خارجية. وفي ما يتعلق

بالاتجاهات والنماذج التكاملية والتوحيدية، بينت نتائج الدراسة الميدانية أن اتجاهات الرأي العام في الأقطار المبحوثة، وإن تباينت من قطر إلى آخر، تعكس وجود تيار مؤيد لتطبيق معظم الإجراءات والسياسات ذات الطبيعة التكاملية والاتحادية في البلدان كافة. وقد هدف الاستطلاع إلى قياس اتجاهات الرأي العام نحو أشكال التكامل والتوحيد أو الاتحاد بين الأقطار العربية، أمام التحولات التي شهدتها الوطن العربي على مختلف الأصعدة وآثارها المباشرة على هذه المبتغيات ومكانتها في الوعي الشعبي. كان من الضروري، أيضاً، أن يتصدى المسح للمعوّقات، ولذلك اهتم قسم من الأسئلة بالمعوّقات الأساسية للتكامل والتوحيد وكيف ينظر لها الرأي العام العربي في وقت أدت التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية دوراً كبيراً في تغيير تركيز النقاش حول العوامل الأكثر تأثيراً في تحقيقها.

٣ - معوّقات التكامل والتوحيد العربي

إن التباينات في التكوين الاجتماعي والثقافي والفكري وكذلك في الظروف الاقتصادية بين الأقطار العربية، إضافة إلى مسارات الاندماج الداخلية في كل دولة وصيرورة بناء الدول الوطنية الحديثة، يمكن أن تدرج وتطرح بوصفها عوامل موضوعية تسهم في إعاقة تحقيق

التكامل والتوحيد العربي. لا يخفى أن فشل التجارب الوحدوية أسهم في إدراج عوامل جديدة بوصفها عوامل معوّقة للوحدة. ولقد أضافت التطورات الداخلية في كل قطر عربي، مع ما تشهده بعض الأقطار العربية من نزاعات وصراعات، عوامل أخرى يمكن أن تؤدي دوراً معوّقاً. لذا ركز القسم الأخير من استمارة الاستطلاع على طرح أسئلة تمكن من التعرف إلى اتجاهات الرأي العام العربي نحو أثر التباين بين المجتمعات العربية في طريقة التأثير والميل نحو احترام القوانين، والنظرة نحو دور المرأة في المجتمع، وحول أثر هذه العوامل بوصفها عوامل تحول دون تحقيق أي شكل للتكامل أو التوحيد العربي.

كانت النتائج غنية بالمؤشرات التي بينت توافق ٣٨ بالمئة من الرأي العام العربي على أن الاختلاف في العادات والتقاليد بين المجتمعات العربية يمثل عائقاً أمام تحقيق تكامل أو توحيد عربي. كما تظهر النتائج وجود انقسام في الرأي العام في الوطن العربي حول أثر التباين في المستويات التعليمية، ومستوى الحريات الاجتماعية، ومستوى الحريات الدينية بين المجتمعات العربية بوصفها عوامل معوّقة. بالمقابل، أفادت أكثرية المستجيبين (٦٦ بالمئة) أن الاختلاف في مستوى الأمن والاستقرار، والاختلاف في الحريات السياسية (٦٠ بالمئة)، والتباين في مستوى الدخل (٦٠ بالمئة) تمثل معوّقات أمام تحقيق الوحدة العربية.

ومع أهمية هذه المؤشرات وضرورة إيلاء الباحثين لها القدر المناسب من الاهتمام والدراسة المعمق لتحديد آثارها في المستقبل العربي، فلا بد من ملاحظة أن الرأي العام في الوطن العربي يكاد يكون متوافقاً على أن عدم رغبة الحكام العرب في إقامة وحدة عربية، وأن غياب الإرادة السياسية وتضارب المصالح بين النظم الحاكمة، عاملان معوّقان لتحقيق الوحدة العربية، إذ توافق على ذلك ٨٨ بالمئة و٧٨ بالمئة من المستجيبين على التوالي، في حين توافق ٦٦ بالمئة على أن اختلاف أنظمة الحكم (جمهوري وملكوي) هو عامل معوّق للوحدة العربية وهي عوامل تعدّ واقعياً أكثر تأثيراً من أي دور تؤديه التباينات المشار إليها.

أما في ما يتعلق بالعوامل أو القوى الخارجية فقد كشفت النتائج أن أكثرية الرأي العام العربي (٧٠ بالمئة) ترى أن الموقف الأوروبي يمثل عائقاً أمام تحقيق الوحدة العربية. ومن المهم الإشارة إلى أن الرأي العام العربي لا يضع هذا الموقف بوصفه عاملاً معوّقاً بالدرجة نفسها التي يتعامل بها مع الموقف الأمريكي - الإسرائيلي. إن هنالك شبه إجماع بين مستجيبين الوطن العربي على أن الموقف الأمريكي والموقف الإسرائيلي من قيام وحدة عربية هو عامل معوّق لتحقيق الوحدة العربية بدرجة كبيرة، مقابل حوالي ٤ بالمئة فقط يعتقدون أن هذين الموقفين لا يمثلان عاملين معوّقين وهو ما يعكس عمق الانطباع حول أثر الموقف الأمريكي والإسرائيلي^(١٨).

(١٨) نشر مركز دراسات الوحدة العربية وأشرف على دراسات متعددة حول مواقف قوى دولية كالولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها من الوحدة العربية، انظر تفاصيل الدراسات على موقع المركز الإلكتروني: <http://www.caus.org.lb>.

إن من بين أهم وأبرز النتائج والمؤشرات قوة في الاستطلاع هو ذلك الغياب الملحوظ لأي اختلاف يذكر في تقييم أثر العامل الأمريكي والإسرائيلي، وحتى العامل الأوروبي، كعوامل معوّقة أمام الوحدة العربية. إلا أن هناك تباينات عندما يكون موضوع السؤال الموقف التركي والموقف الإيراني. فحوالي ثلث مستجبيي سورية أفادوا بأن الموقف التركي والإيراني يمثل عاملاً معوّقاً للوحدة العربية. في حين توافق حوالي ثلثي المستجبيين في السعودية ومصر والأردن واليمن على أن الموقف الإيراني إزاء الوحدة العربية هو عامل معوّق لتحقيقها، وهي نسبة أعلى من التي أفادت بأن الموقف التركي يمثل عاملاً معوّقاً أمام الوحدة العربية، بينما يعكس أن جزءاً من هذا الموقف يتضمن تقييماً لسياسات تلك الدول في المنطقة والموقف الرسمي تجاه تلك الدول. إن هذه النتائج يمكن اعتبارها مؤشراً ملائماً أيضاً لبيان المركزية التي لا تزال تحتلها القضية الفلسطينية والصراع العربي - الصهيوني لدى عرب اليوم. إن الرأي العام العربي ورغم اهتمامه بمواقف وسياسات قوى عالمية وإقليمية أخرى فلا يزال يعطي أولوية للموقف تجاه فلسطين عند تقدير الدول المختلفة.

وهكذا فإن نتائج الاستطلاع الذي نفذته مركز دراسات الوحدة العربية في ٢٠١١ في ثاني دراسة عربية مخصصة للتعرف إلى اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة العربية وما يتصل بها، تؤكد بشكل ظاهر ثبات العديد من الاتجاهات والقيم التي كشف عنها لأول مرة إمبيريقياً أو ميدانياً ذلك المسح الرائد عن المسألة ذاتها. إن ما تم وصفه هنا من نتائج ومؤشرات تمثل اتجاهات الرأي العام العربي عن الهوية والعروبة التي بيّنت استقرارها ومسوح ودراسات أخرى تميّط اللثام وتكشف عن مكونات النموذج البازغ للعروبة الجديدة والفكر الوحدوي العربي الجديد اللذين ينسجمان مع التغيرات ولا ينسلخان عن المشتركات.

رابعاً: نحو عروبة جديدة

أطلق الربيع العربي موجة جديدة من الأحكام والمقاربات بشأن موقع العروبة فيه، وقد استهدفت كثير من المقاربات فكرة العروبة مستندة إلى عدم حضور شعاراتها التقليدية، كما عرفت قبل أكثر من نصف قرن، ضمن ما كانت الجماهير الثائرة والغاضبة ترفعه من شعارات وهتافات في ساحات الاحتجاج، لتكرر الاتهامات ولتجد في ذلك مناسبة لتأكيد ما تراه من موت للعروبة. تتعمد تلك المقاربات تجاهل حقيقة كون احتجاجات الربيع العربي لم تكن متعلقة في الأساس بالقضايا القومية بل بمحددات وملابسات انسداد أفق الإصلاح أو التغيير السياسي، كما تتجاهل دروس التاريخ وأحكامه فتسعى لتصوير الوطن العربي وجماهيره وكأنهم خارج التاريخ ومحصنون ضد تأثيرات التحولات التي تجري بشكل متواصل في بيئة كونية تتسم بالتسارع في إيقاع التطورات، إضافة إلى التشابك الذي أصبح فيه العالم أكثر اتصالاً وتلاقحاً.

لقد بيّنت نتائج دراستنا الميدانية، مثلما المقارنة بمسوح أخرى مختلفة، أن الرأي العام العربي يخزن طاقة عالية من الاتجاهات والتصورات التي تؤكد استقرار قيم ومضامين العروبة

الجامعة بمستوياتها المفهومية والتطبيقية المتعددة. ويقدر ما يمثل ذلك رداً مباشراً على دعاوى سياسية وفكرية نعت العروبة واعتبرتها مجرد طوبى فكر قومي عربي لا يعبر عما يؤمن به العربي ويحسه، فقد كشفت عن قوة وثبات واستمرارية هذه الاتجاهات العروبية بما يكفي، ليس فقط لتجاوز أطروحات موت العروبة، بل لاستشراف عروبة جديدة بدأت تلوح في الأفق.

١ - الاتجاهات الوحدوية وأشكال ونماذج التكامل والتوحيد الممكنة

اعتمدت الدراسة الميدانية أسلوب طرح بدائل متعددة أمام المستجيبين لتقدير ميولهم واتجاهاتهم نحو نماذج أو أشكال ومستويات التكامل والتوحيد الممكنة. ووفقاً لذلك فقد تم تطوير خمسة نماذج يعتقد أنها يمكن أن تحكم علاقات تكامل أو توحيد بين الأقطار العربية. وقد شملت تلك النماذج خيارات: إقامة وحدة اندماجية كاملة؛ اتحاد فدرالي ذات سياسة خارجية وعسكرية واحدة؛ وتطوير التنسيق والتعاون بين الأقطار العربية في إطار الجامعة العربية؛ وأن لا يكون هنالك تعاون بينها؛ وإبقاء الوضع على ما هو عليه. وقد جاءت النتائج معبرة عما يمكن وصفه بالمفاجأة حيث إن النموذجين الأول والثاني المعبرين عن إقامة مشروع وحدوي أو تكاملي عربي قد لقيتا نسبة قبول عالية بين المستجيبين. فلقد أبدى ٥٥ بالمئة إقامة وحدة اندماجية كاملة بين الأقطار العربية، في حين عارض قيامها ٣٤ بالمئة. بينما عكس الرأي العام العربي تأييداً أكبر لإقامة اتحاد فدرالي ذات سياسة خارجية وعسكرية واحدة؛ إذ حصل على تأييد ٦٦ بالمئة من المستجيبين وعارضه ٢١ بالمئة.

أهم خصائص العروبة المعاصرة
أنها ليست مجرد تجسيد لهوية
عربية، أو مجرد توحيد لأمة
مفتتة سياسياً، بل إن العروبة
بحاجة إلى أن يتم النظر إليها من
خلال نظرة مستقبلية لا تنشغل
بالحنين إلى الماضي.

أما في ما يتعلق بتعميق التنسيق والتعاون بين الأقطار العربية في إطار جامعة الأقطار العربية، فقد حصل على تأييد ٨٣ بالمئة من المستجيبين وعارضه ٩ بالمئة. وحول توجهات الرأي العام نحو النموذجين الآخرين، فقد أيد ١٤ بالمئة من المستجيبين إبقاء الوضع بين الأقطار العربية على ما هو عليه، في حين عارض هذا النموذج من العلاقات بين الأقطار العربية ثلاثة أرباع المستجيبين. كما عارض ٨٣ بالمئة غياب التعاون بين الأقطار العربية، مقابل تأييد ١١ بالمئة من المستجيبين ذلك. بذا يبدو جلياً أن الرأي العام العربي منحاز إلى نموذج تعاوني بين الأقطار العربية، وأن الأكثرية تؤيد نموذجاً وحدوياً سواء أكان وحدة اندماجية أم اتحاداً فدرالياً، مقابل تيار يراوح بين خمس المستجيبين وتلثمهم يعارض نموذجاً وحدوياً.

كما حظي النموذج الفدرالي أو الاتحادي بنسبة تأييد من الرأي العام العربي أكبر من تأييده لإقامة وحدة اندماجية، وكانت أعلى نسبة تأييد للاتحاد الفدرالي في فلسطين (٨٤ بالمئة) تلتها سورية بنسبة ٧٣ بالمئة. وأيد نحو ثلثي المستجيبين في السودان ومصر ولبنان واليمن نموذج

الاتحاد الفدرالي، في حين كانت نسب التأييد في الأردن والسعودية والمغرب والجزائر أقل من ذلك قليلاً. ومن المهم التأكيد أن نسب المستجيبين في الأقطار المبحوثة التي عارضت الاتحاد الفدرالي هي نسب محدودة وأقل بشكل جوهري من أولئك الذين عارضوا الوحدة الاندماجية. ففي حين كان الذين عارضوا الاتحاد الفدرالي يمثلون ٣٦ بالمئة من مستجيبى الجزائر، فإن نسب المعارضين في الأقطار الأخرى كانت أقل من ٣٠ بالمئة في كل من السعودية ولبنان، وأقل من ٢٠ بالمئة في بقية الأقطار المبحوثة. كما تجدر الإشارة إلى أن ١٥ - ٢٩ بالمئة من مستجيبى السعودية ومصر والأردن والمغرب واليمن، أفادت بأن لا رأي لها تجاه هذا النموذج.

هذه المؤشرات البالغة الدلالة والأهمية برهان على حيوية فكرة التوحيد والتكامل العربي، وقد أكدت رسوخها وثباتها ما كشفته نتائج استطلاعات مماثلة، إذ يؤكد تقرير مسح معهد الدوحة أن «الأكثرية، وبنسبة ٥٥ إلى ٥٧ بالمئة تؤيد إجراءات تعاونية وتوحيدية بين البلدان العربية، إذ أيد ٥٥ بالمئة إقامة وحدة اندماجية، وأيد ٥٥ بالمئة التعاون والتنسيق بين الأقطار العربية من خلال الجامعة العربية بعد تفعيلها. في حين أيد ٥٧ بالمئة إقامة اتحاد فدرالي. كانت نسب المعارضة لكل إجراء من هذه الإجراءات أقل من ثلث المستجيبين. في المقابل، تعارض أكثرية الرأي العام في المنطقة فكرة أن لا يكون هناك تعاون بين البلدان العربية بنسبة ٧٣ بالمئة، مقابل موافقة ١٧ بالمئة من المستجيبين على عدم وجود تعاون بين الأقطار العربية. وهي نسبة قريبة من نسبة ١٤ بالمئة التي أفادت بأن سكان الوطن العربي هم شعوب وأمم مختلفة بينها روابط ضعيفة. وتجدر الإشارة إلى أن إقامة اتحاد فدرالي تحظى بأعلى نسبة تأييد، وكانت نسبة المعارضة لها هي الأقل»^(١٩).

٢ - الربيع العربي ومستقبل العروبة

إن الربيع العربي هو، مثلما يقترح محمد علي الأتاسي، نقطة انطلاق جديدة في رحلة العرب المعاصرين للبحث عن نموذج جديد. لقد كانت الاحتجاجات فالتورات مناسبة للتأكيد أن كسر الاستقطاب والانقسام تحت أي مبرر هو الطريقة الوحيدة للتغلب على المصاعب التي تقف في وجه التنمية السياسية. لذلك فقد كان الأتاسي لماًحاً في الإشارة إلى تركيبة الكتلة التاريخية التي تمسك بمفتاح التغيير حين يصف المشهد في ميدان التحرير حيث نجد «الإسلاميين والعلمانيين، رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباباً، كانوا يؤكّدون المبدأ الديمقراطي الأكثر جوهرية ببلاغة تفوق أي خطاب»^(٢٠).

(١٩) «مشروع قياس الرأي العام العربي: المؤشر العربي ٢٠١١: ملخص تنفيذي»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (آذار/مارس ٢٠١٢)، <<http://www.dohainstitute.org/file/Get/7df1a2d9-d6e5-48e1-8185-726fd1feaa8a>>.

(٢٠) Mohammed Ali Atassi, «What the People Want...» in: *Perspectives: Political Analysis and Commentary from the Middle East: People's Power: The Arab World in Revolt*, edited by Layla Al-Zubaidi [et al.] (Beirut; Ramallah: Heinrich Boll Stiftung and Regional Office Middle East, 2011), p. 33, <http://www.lb.boell.org/downloads/02_Perspectives_ME_2011_The_Arab_World_in_Revolt.pdf>.

لا ينبغي تجاهل التبلور الذي عرفه الربيع العربي في كل قطر حول أهداف الثورة من شأنها أن توفر الظروف الملائمة لتحقيق الاندماج الاجتماعي داخل كل قطر عربي. إن هذا يمثل وفقاً لفهم تيار التجديد في الفكر القومي عنصراً استراتيجياً أهم للعروبة من أي دور يمكن لعوامل القومية تأديته في ظل الظروف التاريخية الراهنة. وكما يوحى التاريخ فإن العروبة ليست مجرد رغبة جامدة معزولة عن التغيرات والتحويلات أو بمأمن منها ومن تأثيراتها الهائلة. إن ذلك مؤشر على التحول الجاري منذ ثلاثة عقود على الأقل حيث بدا واضحاً أن التعاون العربي أو التكامل يحتاج إلى الارتكاز على دعم ومصادر إسناد إضافية جديدة. وهكذا فإن أهم خصائص العروبة المعاصرة أنها ليست مجرد تجسيد لهوية عربية، أو مجرد توحيد لأمة مفتتة سياسياً، بل إن العروبة بحاجة إلى أن يتم النظر إليها من خلال نظرة مستقبلية لا تشغل بالحنين إلى الماضي.

هذا النسق من الفكر القومي العربي الذي يعبر عنه ما جاء في المشروع النهضوي العربي يُنظر للعروبة كمشروع مستقبلي تُمليه اشتراطات الحاجات. ووفقاً لما أثبتته نتائج استطلاعات الرأي العام العربي أو القطري فإن عرب اليوم أكثر اقتناعاً بضرورة المزيد من التعاون والتكامل العربي. إن حقيقة كون قدر كبير من الاهتمام بتعزيز الصلات العربية الجمعية بين العرب من الأفراد العاديين قد تم التعبير عنه بقوة بين غيره من الاتجاهات العروبية أو التكاملية يوحى بسيادة عروبة جديدة على تفكير العرب اليوم. لقد أبرز الربيع العربي، مثلاً، تعابير تخص القضية الفلسطينية كانت دوماً بارزة في ميادين الثورة وساحات الاحتجاج بدرجة لا يمكن تجاهلها وهو ما يجعل الربيع العربي مرتبطاً بشكل لافت بالمطالب الأساسية المتعلقة بتحقيق الطموحات العربية للجماهير الثائرة حتى وفقاً لأضيق تصور اقتصادي^(٢١). هذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحدي الذي تفرضه قضايا ذات طبيعة اجتماعية دون أي تمويه أيديولوجي، وبدوره وبصورة تلقائية، سيؤدي إلى المزيد من التأكد من صحة النظرة العربية للتكامل والتعاون ورسوخها.

لذلك لا يتردد كثير من الباحثين، كالتملالي، في توقّع ظهور وشيك لنوع جديد من العروبة الشديدة المناوءة للإمبريالية^(٢٢). بذا يمكننا أن نفسر، أيضاً، لماذا ينحاز الشارع العربي، كما بينت نتائج ومؤشرات المسح المشار إليها هنا ويمكن الرجوع إلى تفاصيلها في الكتاب، إلى إجراءات وسياسات ذات طبيعة وحدوية وتكاملية كالسوق العربية المشتركة، والمؤسسات التمثيلية، والقضائية، والعسكرية إضافة إلى تقدير عالٍ لأهمية إلغاء القيود عن حركة التنقل بين البلدان العربية، ومنحاز كذلك إلى تحرير التجارة البينية بين البلدان العربية كإجراءات تعتقد أكثرية الرأي العام العربي بأنها في مصلحة بلدانها.

Ziad Abdel Samad and Kinda Mohamadieh, «The Revolutions of the Arab Region: Socio-economic Questions at the Heart of Successful Ways Forward,» in: Ibid., pp. 112-118.

Yassine Tamlali, «The «Arab Spring»: Rebirth or Final Throes of Pan-Arabism?,» in: (٢٢) Ibid., pp. 48-49.

أخيراً؛ فإن النتائج والمؤشرات التي أمكن استخلاصها من الدراسة الميدانية لاتجاهات الرأي العام العربي نحو التكامل والتوحيد العربي تفتح آفاقاً جديدة أمام العمل العربي المشترك وتضع الفكر العربي، والقومي بخاصة، أمام الحاجة إلى تفهم مضامين هذه الاتجاهات. هذه النتائج التي كشفت عنها إجابات العرب الذين كانوا جزءاً من العينة التي شملها المسح، وعززتها نتائج دراسات ومسوح قامت بها مؤسسات عربية وأجنبية لأغراض مختلفة، تعطي صدقية وقوة حجة لدعوة التكامل والتوحيد العربي، وذلك أبسط مكونات السياسة الديمقراطية التي يمكن اعتبار الربيع العربي بداية انطلاقتها. لقد أعاد الربيع الشعوب العربية إلى الواجهة لتملك واقعها ومصيرها، ومن المنطقي أن تحكم وتحدد شكل ومضمون مستقبلها أيضاً □

صدر حديثاً

الهوية وقضاياها

في الوعي العربي المعاصر

مجموعة من الباحثين



احتل موضوع الهوية، ولا يزال، حيزاً واسعاً في الفكر القومي العربي، نظراً إلى ما شهدته قضية الهوية في الوطن العربي من إشكاليات وتحديات فرضها تعدد الانتماءات الإثنية والمذهبية والدينية والجهوية والوطنية ما دون القومية من جهة، والاحتكاك الثقافي المتعدد الأوجه مع الخارج، المتمثل بالغرب تحديداً، من جهة أخرى.

يقدم هذا الكتاب قراءة تجديدية نقدية لقضايا الهوية العربية ساهم فيها نخبة من الباحثين والكتاب العرب، وجاءت هذه القراءة في أربعة وعشرين فصلاً حول قضايا الهوية العربية وعلاقتها باللغة والثقافة والتاريخ والواقع الاجتماعي والسياسي والعمراني. تتوزع فصول الكتاب على ثلاثة أقسام يبحث أولها في فلسفة الهوية والانتماء، ويتناول الثاني قضايا الهوية في بعض التجارب القطرية، ثم يتناول الثالث التحولات في هوية العمارة العربية في ظل العولمة.

٦٢٣ صفحة

الثن: ٢٨ دولاراً

أو ما يعادلها